محاضرات قدمت في مقياس مناهج البحث في العلاقات الدولية لطلبة السنة الثالثة
علوم سياسية: تخصص علاقات دولية
الأستاذة : بوراس عفاف

المنهج السلوكي

مقدمة :
نشأت المدرسة السلوكية في عقد الخمسينات من القرن العشرين، وبقيت نموذجا مهيمنا في العلوم الإجتماعية الأميركية حتى السبعينات وانطلاقا من الإيمان بالوحدة بين العلم والسلوك الإنساني، قام العلماء السلوكيون بتطوير مناهج علمية وكميّة لدراسة العمليات السياسية، والتي بدورها فتحت المجال أمام الكثير من النظريات والطرق المستمدة من العلوم الإجتماعية والرياضية.
و "السلوكية كمنهج لدراسة العلاقات الدولية"تجد جذورها الفكرية في المدرسة السلوكية، وهي مدرسة إجتماعية أسسها جايمس واتسون James B. Watson ، وتأثرت كذلك بأعمال الفيزيولوجي جاكس لوب Jacques Loeb ، كما يعتبر ديفيد إستون David Easton – من أبرز أساتذة المدرسة السلوكية الذي تحدث عن دراسة المؤثرات في النظام السياسي، سواء الداخلية أو الخارجية، متوقفا عند دراسة البيئة السياسية بما فيها من تعقيدات.

I- دور المنهج السلوكي في دراسة وتفسير العلاقات الدولية :ينطلق المنهج السلوكي في تحليله من اعتبار سلوك البشر هو جوهر العلاقات السياسية، لذلك ندرس سلوكيات الدول التي هي في الأصل سلوكيات الأفراد والجماعات، وهي نتيجة تتفاعل ظروف معينة مع علوم أخرى – غير علم السياسة – كالإقتصاد وعلم النفس وعلم الإجتماع والديموغرافيا والإنتروبولوجيا. كما يعتمد المنهج السلوكي على التحليل الكمي للحالات الواقعة في العلاقات الدولية من خلال علوم الرياضيات والكومبيوتر ويربط المنهج بين الظواهر السياسية والظواهر الإجتماعية، ونجد أن السلوك السياسي هو جزء من السلوك الإجتماعي العام. كما انتقدت رواد المنهج السلوكي مبادئ المدرستين التقليديتين: المثالية والواقعية، من حيث اعتماد الأولى على القانون والثانية على القوة، واوجدت عوامل أخرى مؤثرة في مسار العلاقات الدولية إضافة لهذين العاملين.

II- مبادئ السلوكية:
*-ركز السلوكيون في اجتهاداتهم التنظيرية على تلك الظواهر الخارجية التي تعبر عن ذاتها في نطاق المعرفة الحسية والقابلة للتحليل الكمي، كما يحدث في أي علم من العلوم الطبيعية، وكذلك البحث لاكتشاف القواعد التي تحكم تصرفات، أو سلوكيات الافراد والجماعات والمؤسسات انطلاقا من أن السلوك هو المحدد للحياة النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لهؤلاء الفاعلين، وأن البيئة التي تجري فيها هذه التفاعلات السلوكية هي الإطار المحدد للسلوك، وهي التي تتحكم في ردود الأفعال إزاء المؤثرات الداخلية و الخارجية.
*-وبهذا قامت العلوم السلوكية على دراسة سلوك الفاعل الفعل الحركة وما يحدثه هذا السلوك الفعل على غيره من الفاعلين الاخرين، أي دراسة سلوك الفاعل في علاقته مع بيئته، من خلال عمليات التكيف التي تفرضها المؤثرات البيئية، بمعنى آخر، دراسة الفعل في شكل تصرفات ووقائع مادية، والعلاقة التي تحدث بين المنبه البيئي والاستجابة السلوكية، أي كيف يكيف الفاعل سلوكه مع المتطلبات التي تفرضها البيئة التي يتحرك فيها؟
فالعلاقة التي تحدث بين المنبه البيئي والاستجابة السلوكية تقوم على فعل ورد الفعل الذي يقوم به الفاعل في علاقته مع البيئة، وهي علاقة مبنية على التأثير المتبادل والمستمر بينهما، وكل هذه العملية– الافعال ردود الافعال لتكيف التأثير هي التي تسمى بالظاهرة السلوكية.
*- اهتمت المدرسة السلوكية بدراسة سلوك ونشاط الفاعل وما ينجم عنه من تفاعلات وتأثيرات تؤدي إلى تغيير سلوك ونشاط الفاعلين الاخرين، ويعتبر **ديفيد إيستون** أول من دعا علماء السياسة إلى التركيز في أبحاثهم على الأنشطة التي تحدث داخل المؤسسات، وليس على المؤسسات.
وحسب **ديفيد ترومان** هو: دراسة كل الأفعال والأفعال المتبادلة للأفراد والجماعات المشاركة في عملية ممارسة السلطة، أي أن الأدوار التي يقوم بها هي أساس وحدات التحليل وليس المؤسسات، وربط هذه الادوار بمتغير الشخصية القومية، والشعور القومي، والقيم القومية والمعنويات القومية، وليس فقط بمتغير
القوة القومية كما يذهب الواقعيون، أو متغير الطبقة كما يحللها الماركسيون.

III- تأثير المنهج السلوكي في تطوير دراسة العلاقات الدولية

*-مثلت السلوكية ثورة منهجية حقيقية في علمي السياسة والعلاقات الدولية، اذ تحول الباحثون عن دراسة المؤسسات والقوانين والتاريخ ودراسة الحالات الفردية إلى ملاحظة السلوك الانساني لمعرفة القوانين التي تحكمه، فعن طريق تحديد النماذج والانتظامات فقط يمكن تشكيل نظريات عامة، تستطيع تفسير وتوقع الحالات المشابهة لها.

*- ذهب جون،سدرزيك إلى حد وصف الثورة السلوكية بالتحول البراديمي الثاني في التطور النظري للعلاقات الدولية وقد برزت السلوكية في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين كنقد ورفض لمناهج التقليدية التي اتبعها الباحثون في دراسة وتحليل الأحداث السياسية، ودعت الى ضرورة اهتمام البحث العلمي بالتفكير في الواقع بدل التفكيير الغائي أو المجرد، أي الاهتمام والاقتصار فقط على الظواهر التي يمكن ادراكها عن طريق الحواس ويمكن تكميمها وقياسها، مستخدمة في ذلك ما تتيحه أدوات الاحصاء وتقنيات الحاسوب،.الخ.

*-ويؤكد روبرت دال أن السلوكية جاءت كرد فعل على عدم كفاية وجدوى المناهج التقليدية في دراسة الظواهر السياسية، بالإضافة إلى رغبة أنصارها في بناء نظريات سياسية علمية على أسس المنهج العلمي التجريبي، وكذا ربط الحقل المعرفي لعلم السياسة بحقول معرفية أخرى.

*-على المستوى الفلسفي والابستمولوجي، تبنت السلوكية عدد من الافتراضات العلمية فيما يتعلق بطبيعة العلم، حيث رفضت التفريق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية من ناحية المنهج المستخدم في البحث، أي تفرد واستقلال العلوم الاجتماعية بمناهج وأدوات ومهارات معرفية واجراءات عملية مختلفة عن تلك السائدة في العلوم الطبيعية، وأصرت أن هناك طريقا واحدا للعلم، وهو المنهج العلمي. ونظرا لتركيز ها على التجريبية فإن السلوكية تميل الى رفض التحليل التاريخي، لأنها تعتبر من غير المنطقي البحث في الماضي عن تفسيرات وأفكار حول شؤون السياسة عندما تكون الملاحظة الطريق الأكثر اعتمادا للوصول إلى المعرفة.

*- ترى السلوكية أن السلوك فقط هو ما يمكن ملاحظته وقياسه، أي هناك نوع فقط من المعطيات والمعلومات يمكن أن يكون أساسا لعلم العلاقات الدولية. وبالتالي، فعن طريق تكميم سلوك الانسان وقياسه نستطيع الوصول إلى أحكام وقواعد / أو قوانين عامة.

*- مهمة العالم السلوكي هي تقديم فرضيات معقولة بخصوص أفعال الانسان، واختبارها أي الفرضيات بشكل منظم وتجريبي، وباستعمال أدوات المنهج العلمي لوصف وتفسير السلوك الإنساني بغية توقع ومعرفة السلوك المستقبلي، لذلك اعتمدت البحوث السلوكية في العلاقات الدولية، على الاستخدام الواسع للمناهج الكمية وتقنيات تحليل المضمون، تحليل الاحداث، والملاحظة والقياس، وتعتمد هذه المناهج بدورها على الطرق التالية:

-جمع المعلومات بشأن الظاهرة موضوع الدراسة بطريقة علمية
-تصنيف وترتيب هذه المعلومات في جداول إحصائية
-وضع المعلومات في عينات ووحدات قابلة للقياس والتحليل الكمي
-اعطاء المفاهيم صبغة علمية تجعلها قابلة للقياس
-تجنب الذاتية والأحكام والقيم المسبقة
-الاستعانة بالحاسب الآلي بشأن جمع وترتيب وتنظيم المعلومات
- تحليل العينات والكشف عن العلاقة بين الظواهر والمتغيرات
-التعرف على النماذج السلوكية المتكررة

IV-خصائص المدرسة السلوكية في العلاقات الدولية

قام ديفيد إيستون بتحديد ثماني خصائص للسلوكية تتلخص في الآتي:

-1الإنتظام : Regularities – يؤمن أرباب المدرسة السلوكية بأن هناك تَشابهات ملحوظة في السلوك السياسي يُمكِن التوصل إليها بالتعميم أو التنظير القادر على التفسير والتنبؤ.

-2الإثبات : Verification – ترى السلوكية أنه لا بد من اختبار صحة الفرضيات بمراجعة علاقتها بالسلوك؛ أي : بإخضاعها للاختبار التجريبي والملاحظة.

-3التقنية : Techniques – تؤكِّد السلوكية بأنه لا يمكن التسليم بصحة طُرُق جمْع البيانات بصورة مطلَقة، فلا بد من فحْصها وتحسينها وإثبات نفْعها حتى يمكن التوصل إلى أمثل الوسائل لتسجيل وتحليل السلوك، وتَعتمِد المدرسة السلوكيَّة على طُرُق التحليل المعقَّدة، مثل : النماذج الرياضية، والمحاكاة، والمسح بالعينات وغيرها، ويعتقد السلوكيون بأن الاعتماد على التَّقنية سيُمكِّن الباحث من التجرد من القيم المؤثرة على طريقة التحليل.

-4القياس الكمّي : Quantification – تتطلَّب دقة المعلومات الاعتماد على القياس الكَمي، وعليه فالطرق الرياضية في التحليل ستمكِّن الباحثَ من التوصل إلى معلومات دقيقة ومحدَّدة عن الحياة السياسية، بعكس ما لو استخدم الباحث الطرقَ النوعية غير الدقيقة في التحليل السياسي.

-5القيم : Values – لا بد من فصـْل التقويم الأخلاقي عن التفسـير التجريبي، ولكن هذا لا يعني أن دارِس السـلوك السياسي لا يتمكن من دراسة المعايير الأخلاقية طالما أن باستطاعته فصْل القيم عن الحقائق.

-6التنظيم المنـهجي : Systematization – لا بد من تنظيم التحليل لإدراك التداخل بين النظرية والبحث؛ فأرباب المدرسـة السـلوكية يؤكِدون بأن العلم لا بد أن يركِز على التنظير؛ فالبحث العلمي المنظَّم يهدف فقط إلى إيجاد نظريَّات علميَّة.

-7العِلم الصــرف : Pure science - يعد اسـتخدام المعرفة جزءًا من العلم تمامًا كالمعرفة النظرية، ولكن معرفة وتفسـير السـلوك السـياسـي بالطرق العلمية لا بد أن يأتِي أولا، ولا بد أن توضـَع القواعد العلمية للانتفاع من المعرفة السياسية في حلِّ المشاكل الاجتماعية.

-8التكامل : Integration – نظرًا لتداخل المفاهيم السـياسـية المعاصـرة، ونظرا لأن علم السـياسـة يُعالِج السـلوكَ السـياسـي للإنسـان، فإن عَزِل هذا الحقل عن العلوم الأخرى يُعَد مؤشـرًا خطيرًا يوحي بتدهور المعرفة العلمية ككل، وعليه فإن تَسابُق العلوم الاجتماعية لتأكيد ذاتها واستقلالها قد يؤدي في النهاية إلى تقويض دعائم العلم نفسه.

نقد السلوكية

على رغم ما قدّمته هذه المدرسـة من خدمات للبحث العلمي، إلا أنّها تعرضـت للنقد من حيث وجود بعض الثغرات في طروحاتها النظرية، وذلك لأنّها تطرّفت في اسـتبعاد القيم المؤثرة في شـخصـية الباحث ونتائج البحث العلمي، كما أنّها غالت في إمكانية توقّع حوادث المستقبل بصورة حتميّة. بالإضافة الى ذلك، استبعدت المدرسة السلوكية بعض الظواهر الموجودة في العلاقات الدولية والتي يصـــعب إخضـــاعها لقواعد البحث العلمي، فبقيت في دائرة المعرفة التقليدية أو المحافظة.

الخاتمة:

على الرغم من أن الاجتهادات العلمية للسـلوكية اسـتطاعت ان تتجاوز التحديات التي فرضـتها التطورات الجديدة على العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، سـواء بدراسـتها لموضـوعات جديدة في العلاقات الدولية أو بإدخالها لمناهج جديدة في دراســة العلاقات الدولية ، وتحقيقها بذلك دفعة نوعية في تطور العلاقات الدولية كموضـــوع ومنهج. إلا أنها تعرضت للانتقادات بحجة أنها محافظة، لأنها تهتم بدراسة وتحليل الظواهر السياسية الدولية دون تقديم جهد نظري لكيفية حل الأزمات والنزاعات التي تهدد الإنسـانية، والمجتمع الدولي برمته، وهذه المحافظة تنبع أصـلا من عدم اهتمامهم بالقيم في دراسـتهم للقضـايا والأزمات الدولية. كما انتقدت أيضـا بأنها لم تصـل لبلورت نظرية كلية لتحليل العلاقات الدولية، فالسـلوكية حققت قفزة نوعية بشـأن تطوير موضـوعات العلاقات الدولية من خلال مداخل ونظريات و اقترابات جزئية تساعد على إجراء دراسات مقارنة في العلاقات الدولية.